ASJP
Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد: 06، العدد: 02 (2021) ص: 14 – 25

تشظي الهوية وتفعيل الذاكرة المنسية، قراءة في رواية "شبح الكليدوني" للروائي الجزائري محمد مفلاح

Fragmentation of identity and activation of forgotten memory, a reading in the novel "The Ghost of Al-Keldouni" by the Algerian novelist Mohamed Miflah

مسيكة ذيب

جامعة العربي التبسي تبسة –الجزائر

massikadoc77@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الإرسال: 2021 / 02 / 11

تاريخ القبول: 2021 / 05 / 22

الكلمات المفتاحية:
- الهوية، تشظي
- الذاكرة، المنسية
- كاليدونيا، محمد مفلاح

الملخص:

رواية شبح الكليدوني معمارية سردية جامعة ينصهر في بودقتها الواقعي والتخييلي، الذاكرة والحلم، المعلوم والموهوم، المرجعي التاريخي والجمالي الفني، إنها خطاب حفريات فاضحة، هاجسها الكشف والمكاشفة، وتعرية المسكوت عنه، بل رفع اللثام عن كل ذاكرة منسية أسقطها المؤرخون بشيء من القصدية عميق، ومن هذا الوجع الغائر في تعاريج الزمن، راحت تطرح سؤال الماضي في نوع من الاشتباك الأثير مع سؤال الهوية، وهي أسئلة تستمد مشروعيتها من الراهن الجزائري الذي يمعن في تجاهل مقومات هذه الهوية وطمس دمغتها، ومحو معالمها الكبرى، ومادام أن الذات الجزائرية لم تستوعب بعد ذاكرتها وهويتها، فإن الروائي لا يكف عن تذكيرها بهذه الهوية الهائمة التي تكاد تضيع في تقاسيم المدى، ولن يتم ذلك إلا بتفعيل الذاكرة المنسية التي طال انتظارها في مصاطب الهامش والمقصي.

Article info

Received 11/02/2021

Accepted 22/05/2021

Keywords:
- *Identity, fragmentation*
- *memory, forgotten*
- *Caledonia*
- *Muhammad Miflah*

Abstract :

The novel of the ghost of al-Kalidouni is a comprehensive narrative architecture that fuses in its realistic and imaginative melody, memory and dream, the known and the concept, the historical and artistic aesthetic reference. From this deep pain in the passages of time, it began to raise the question of the past in a kind of eternal clash with the question of identity, which are questions that derive their legitimacy from the Algerian present, which continues to ignore the components of this identity, obliterate its imprint, and erase its major features, as long as the Algerian self has not yet absorbed its memory And her identity, the novelist does not cease to remind her of this wandering identity that is almost lost in the divisions of the term, and this will only be done by activating the long-awaited forgotten memory in the paths of margin and exclusion.

مدخل نصي

«ما يؤلمنا حقا نكتبه ولا نقوله، الكتابة بوح صامت، وجع لا صوت له. لكننا ننفضح دوما به، ننسى أن الحبر لا ينسى، لكنه برغم وشايته لا يفتري على أحد...» (أحلام مستغانمي، شهيا كفراق، ص: 87).

1. على سبيل التقديم

يعتبر المنفى بشؤونه وشجونه، وقساوته ومرارته مرتكزا أساسيا لبعض الخطابات الإبداعية والمنجزات الروائية التي راحت تتخذ منه بؤرة تيماتية لتشييد عوالمها السردية، بل مصدرا حلميا باذخ الثراء لهندسة تضاريسها ووحداتها النصية، ومن هنا تحققت طلائع الميلاد لنمط سردي راسخ في حقل النتاجات الأدبية؛ عرف بمسرودات أو سرديات المنفى، وهي نوع من الكتابة المحفوفة بالضنى والوجع، والتي تستدعي في اشتغالها المكان معمدا بالهوية، والأرض في تواشجها العميق مع الثقافة والتاريخ، واللغة في تعالقها الوجودي مع الإنسان؛ إنها كتابة تهجس بآليات عمل الذاكرة، ومثولها للشفاء من عدوى النسيان، بعد ارتشافها لترياق التفعيل الماضوي لمحمولاتها التائهة في تقاسيم المدى.

هكذا إذن، يغدو المنفى أحد أكثر القضايا الجوهرية التي راح حضورها يتنامى – وبشكل مائز ومكثف– في الكتابات الإبداعية الإنسانية عموما، والعربية على وجه الخصوص، إنه يتحول إلى منهل خصيب لاسترفاد التجارب الحياتية القاسية للذوات البشرية المنبوذة التي لفظت قسرا وقهرا –(وفي حالات قليلةاصطفاء واختيارا)– لتجد نفسها هنالك ترزخ تحت وطأة المواجع والفواجع، غارقة في جب الكآبة والقلق الهاجع، مسكونة برغبات الحنين والاشتياق الجارف، ثم تطعيمها بلقاح التخييل الذي يضفي عليها خصوصيتها وأبعادها المجازية والجمالية، وتبعا لذلك فإن ثمة علاقة جدلية بين موضوعة المنفى والبنية السردية التي تخلقها وتتخلق من خلالها ملامح هوية شقية مزدوجة ومنشطرة للذوات المنفية.

وإذا كان المنفى قد تحول إلى مادة خصيبة وتيمة سردية رئيسة في العديد من الممارسات الخطابية، أين نلحظ نوعا من الإرتداد والإقبال على هذه التجربة المؤلمة التي هي مزيج من الإغتراب والنفور والقلق والذبول لدى بعض الكتاب والروائيين، الذين اتخذوا منها مطية لإعادة بعث التاريخ المطمور والمهمش في إطار سرد خاص مشحون بالحس التراجيدي يتعالى على الزمان، ويهيم شغفا لاحتضان المكان بحمولته الثقافية والحضارية، فما المقصود بالمنفى يا ترى؟

2. توصيف المنفى

نشير بداية إلى أنه لا يجب أن نقع في فخ النظرة التسطيحية للمنفى، على أساس أنه مجرد لفظ يتم به ومن خلاله توصيف الذوات المطرودة والمبعدة إلى الفيافي والشعاب، بل إنه أعمق وأشد وقعا، لأنه يحيل على «جرح بليغ صعب الرتق تراجيديا الأنا الهشة في مواجهة يقينيات الآخر الصارمة، ماذا يبقى من تلك اللحظة المنكسرة والمعطلة والمعطرة بماء السحر والخوف؟ لاشيء سوى ألم عميق مبطن مثل المعدن النفيس...» (الأعرج، 2020)، وكأن هذه الكلمة على قدر قلة حروفها تخفي وراءها إرثا إنسانيا ثقيلا يهدج بالمرارة ومواجع الفقد والخسارة.

على هذا النحو يمكن القول بأن المنفى قيد، بل قدر لا يمكن تفاديه، وتدعيما لهذا الرأي يذهب إدوارد سعيد إلى أن: «المنفى هو أحد أكثر الأقدار مدعاة للكآبة. وفي أزمنة ما قبل العصر الحديث كان الإبعاد عقابا مرعبا بصفة خاصة، لأنه لم يكن يعني فقط أعواما يعيشها الإنسان تائها بدون هدف، بعيدا عن الأسرة وعن الأماكن المألوفة، بل يعني أيضا أن يكون أشبه بمنبوذ دائم لا يشعر أبدا كأنه بين أهله وخلانه، لا يتفق البتة مع محيطه، لا يتعزى عن الماضي، لا يذيقه الحاضر والمستقبل إلا طعم المرارة...» (إدوارد، 1997)، وبناء على ذلك، فإن المنفى ينتصب كعقاب شديد الوطء، بل يتحول إلى قنبلة موقوتة هي الأكثر فتكا وبطشا، من شأنها العمل على تعميق هوة المأساة والمعاناة في متاهة أرضية غريبة لا يعرف عنها المنفي شيئا، خاصة وأنه قد تم ترحيله واقتلاع جذوره قسريا من مكان حميمي نبت فيه كزهرة برية جميلة، صوب مسالك تنز بالصعوبة والعداء والإحباطات وتواتر الإنكسارات، إنه هدر للوقت وقتل للساعات، بل الأيام والشهور المتتابعات دون جدوى، وهكذا، فإن حزن بدايات المنافي يكون أعتى وأشد اقتناصا وافتراسا، ويتعمق الجرح شيئا فشيئا، ليتحول منفى السنة في لحظة عابرة إلى عمر مديد.

وإن شئنا توصيف المنفى من زاوية أخرى، وجدنا مُحَمَّد الشحات أكثر إصابة للهدف في وضع اللمسات والرتوشات الخاصة بذلك، إذ نجده يذهب إلى حد القول: إنه «...إبعاد عن الوطن ونبذ ونزع للألفة. والمنفى "منزلة بين منزلتين" زمكان مؤقت يقع بين زمكانين، أحدهما ماضي صيغت ملامحه في الوطن المبعد، والآخر وشيك الحدوث في المستقبل القريب (-الموت)، هكذا يكون المنفى هو البرزخ، أو هو ذلك الإستثناء بين الحياة والموت...» (المجيد، 2006)؛ ومعنى ذلك أن الذات المنفية تقبع هنالك في منطقة برزخية تكرس أمارات الإنفصال، وتدجج من حضورها، وفي هذه المساحة القابعة في مهب الوسطية تعيش لحظات حياتية بينية حالكة، حتى تسحبها دوامة الموت، حيث الظلمة المستبدة، فلا تدري أي قبر سيضمها، وأي تربة ستأويها، فيمتزج جسدها بها، متماهيا فيها في لحظة عشق أبدية!

ومن الكتاب الذين قادهم شغف الكتابة وقلقها إلى الانغماس في دوائر تجربة المنفى، والتي هيمنت على مخيلاتهم، وحفرت عميقا في وجداناتهم الروائي الجزائري: مُحَمَّد مفلاح، والذي عمد إلى النبش في تربة الماضي، لتعرية مناطق الظل فيها، والكشف عن المخبوء المتواري بين طياتها، وذلك عبر صفحات روايته الموسومة بـ: شبح الكليدوني، والتي تحمل بين أعطافها ثقل كسورات الحياة وقتامة الواقع، وانخراط الذات المنفية في منحى العدمية القاتل، إنها رواية أقل ما يقال عنها أنها تنتمي إلى أدب المنفى، أو كما يحلو لهومي بابا أن يسميه بأدب "اللااستئناس"، لأنها تعيد صياغة تجربة مريرة لسرب من الجزائريين المقموعين والمهمشين والمنبوذين والمنفيين إلى جزيرة كاليدونيا، لا لشيء إلا لأنهم وقفوا في الصف النقيض للمركز الكولونيالي، وأظهروا الرفض والنهوض في وجهه، فكان مصيرهم الزج بهم بعيدا في غيابات المنافي المدلهمة المعادية لكل ما هو إنساني، وإذا كان الروائي قد ركز في روايته على هذا المنحى الحدثي بالذات، فهل أراد من وراء ذلك توصيف النفي كتجربة حياتية قاسية، أم أنه كان يطمح إلى إصابة أهداف أخرى؟ أو بتعبير آخر: هل أراد مفلاح من منجزه الروائي هذا أن يكون مجرد تسريد عابر للمنفى، أم نصا مدافعا عن التاريخ والذكرى، حاملا لمشعل التفعيل الحكائي لهما ضد هذيان النسيان وحراس النوايا المترصدين لهما؟

3. رواية شبح الكليدوني بين المرجعية والتخييلية

لقد أصبحت تجربة المنفى بالنسبة للروائي مُحَمَّد مفلاح محفزا قويا للكتابة القصصية، إذ نراه يتخذ من السرد مطية أو فرصة ثمينة لنبش التاريخ، متحملا عبء فتح آفاق جديدة أمام الوعي الإنساني، بل نفض الغبار على بعض أشيائه المهملة في قعر النسيان، وهكذا فإن روايته شبح الكليدوني، وعلى الرغم من اتكائها على الواقع، واستبطانها للذكريات العابرة، إلا أن هويتها التخييلية تظل قائمة مدججة بالسرد الماتع الذي لا يكف عن حفر مجراه في حركة انسيابية جميلة.

وتماشيا مع هذا الطرح، فإن رواية شبح الكليدوني تراهن على محاكاة التاريخ، ومحاورته وإعادة صوغ أحداثه ووقائعه، لكن من دون أن تتنزل به إلى مستويات تسجيلية دنيا، أو تفرط في الإرتقاء به، فتحيطه بهالة من الجلال والتبجيل حد القداسة؛ ومعنى ذلك أن الروائي يجيد إحكام توظيف هذه التقانة والمضي بها في مضمار التجريب الأدبي، دون أن يقع أسيرا في شراكها، فيتحول صنيعه الكتابي إلى وثيقة تاريخية تحتفي بالحقيقة والواقع، وتلفظ الخيال وتعادي مصادره، إنه يكتب الماضي بصورة متحررة من قيود الزمن، وهذا ما أتاح له الإقتراب أكثر من المناطق الداجية والزوايا الدهماء في الذات الإنسانية المبعدة قسرا.

يطيب لي وأنا أقرأ هذه الرواية، التي تمتح من معين التاريخ، وتتغذى على نسغه في جرأة كبيرة وكأنها تتقصد إحراجنا نحن كذوات تناست محطات تاريخية هامة من تاريخها الجمعي من جهة، ومن جهة ثانية إدانة المؤرخين الذين يمرون على بعض الحقب الزمنية المفصلية مرور الكرام أو يتجاهلونها أساسا، فكيف لهم أن يغضوا الطرف عن أنين وصرخات الذوات المتألمة المسكونة بالوجع والحنين هناك في متاهات المنافي الكاليدونية؟ أيكون ذلك مرده إلى أن التاريخ لا يكتبه سوى المنتصرون؟ والمنتصر قد يقصي تاريخ المستضعفين، ويوغل في التهميش إلى تخوم التزوير وإعدام الحقيقة على مرأى من عيون الزمن، وهكذا فعبر مسرب رؤية سردية تعاملت مع التاريخ بوعي وفير، عمد مفلاح إلى استرجاع حادثة مضت (نفي الجزائريين الثائرين المغضوب عليهم من قبل فرنسا إلى جزيرة كاليدونيا، التابعة لأراضيها الواقعة في المحيط الهادي، والقريبة من قارة أوقيانوسيا)، ولكنها لا تزال تتحرك عبر منافذ الذاكرة ودروبها، ثم إعادة صياغتها في لمسة قصصية تستحق التنويه والالتفات، ذلك أن التاريخ يعد ذاكرة البشرية وعبق بخورها الذي يجب أن يتوج بالبقاء؛ إنه احتياطي هائل من الأحداث والتجارب والخبرات والذكريات التي مرت بها الشعوب عبر الحضارات المتعاقبة، بل ثروة جمعية نفيسة لا يمكن إهدارها أو إهمالها، فتصبح طي الكتمان أو على الأرجح في خبر كان.

على هذا النحو، فإن الرواية لا تكف عن مد يد القربى للتاريخ، وتعميق وشائج الصلة به، على أننا يجب أن نشير إلى أن تعاطي مفلاح لما هو تاريخي ليس استهلاكيا، بقدر ما هو استثمار جمالي يستدعي الحدث الماضوي، ليحتفي به في حضرة اللغة التصويرية والعبارة السردية الموحية، وكأنه يتبنى الدفاع عن قضية مهدورة الحقوق؛ تاريخ المستضعفين والمنبوذين والمهجرين عنوة، لأجل ذلك نجده يرافع – سرديا– بكل ما أوتي من قوة، إنه يستشعر تقصير المؤرخين الجزائريين في رفع الحجب عن المخبوء الدفين في تعاريج التاريخ الجزائري، وإضاءة مناطق العتمة فيه، بل إماطة اللثام عن كل ما هو مهمل ومغبر تكاد تقاسيم كينونته تمحي وتندثر.

وتبعا لما سبق، فقد صار التاريخ بالنسبة للروائي هو الشغل الشاغل، بل بؤرة اهتمامه في المبتدأ والمنتهى، عراقة الماضي وصوت الذكرى والذاكرة، إنه يتحول لديه إلى هاجس إبداعي، وسؤال استثنائي يؤرقه ويقض عليه مضجعه، ويأتينا التأكيد على ذلك من خلال اعتراف صريح جاء على لسانه، إذ نسمعه يقول: «اهتمامي بالتاريخ صار هوسا يحثني في كل لحظة على التنقيب في الذاكرة بحثا عن الوقائع المغيبة والجراح المنسية على أمل أن أقدم إضاءة جديدة لفهم حاضرنا، فالتاريخ الجزائري بحاجة إلى قراءات جديدة، ومعالجته بجدية هي الطابو الحقيقي كما أرى لأننا بممارسة هذا الجهد سنمنح للأجيال فرصة مواجهة مصيرنا» (مفلاح، 2015).

وهكذا فإن رواية شبح الكليدوني لمحمد مفلاح تأتي كمغامرة كتابية تهجس بعبق الماضي وذكرياته، إنها تبتعد عن البذخ الاستعراضي لوقائعه وأحداثه، لتمضي قدما نحو الأمام نشدانا لطموح أكبر، إنها كتابة أقل ما يقال عنها أنها تهفو إلى تمثل ما يرتع في الهامش المنسي، لاستجلاء عذابات النفس البشرية في أحلك لحظاتها الحياتية، بل في أعتى محطاتها القاسية، محطة المنفى، حيث لا رفيق ولا أنيس، وهكذا فإن الفعل القرائي لمثل هذه النصوص تعتريه الصعوبة والتعقيد والالتباس، لأن القارئ يجد نفسه أمام نمط نصي خاص يتعالق فيه الواقعي مع الخيالي، ففي كنهه تتجذر المرجعية والملامح التاريخية، إلى جانب بعض اللمسات والقسمات التخييلية التي تساهم في تعضيد البعد الجمالي له، وتبعا لهذا الطرح، فإن نصا من هذا النوع يحتاج «إلى قراءة خاصة تأخذه في كليته دون أن تسقط من اعتبارها هذه الحدود التي تفصل الواقعي عن التخييلي» (سعيد، 2012).

إذن، تتعاطى رواية شبح الكليدوني مع التاريخ بوصفه مجالا لاستدعاء الذكرى ومعالجة القضايا الكبرى، بل وسيلة لمساءلة الحاضر ونقده وإدانته، إنها تستثمر الحدث الماضي لإعادة بنائه في إطار الحاضر بما تقتضيه الضرورة السردية، عبر محاولة ترمي إلى تفعيل الأحداث الخالدة، وبعثها من مرقدها وسباتها العميق، لقراءة الراهن والطارئ في ظلها، إنه نوع من التعالق والتلاقح النصي بين الماضي والحاضر، يجعل من الخطاب الروائي كفيلا بردم تلك الهوة بين الأحفاد والأسلاف، لخلق جسر تواصل عتيد يسهم في تمتين العلائق وتوطيد الأواصر بين الماضي والآني والآتي.

4. تشظي الهوية وانشطار الذات السردية

يستلهم مُحَّد مفلاح كيمياءه السردية من مآسي الماضي وعذاباته، ليقدم لنا توصيفا عميقا لبعض التجارب الإنسانية، بل أنموذجا حيا عن الذوات المنفية؛ الذوات الجزائرية الشريدة، الجريحة، والممزقة الأواصر، والتي أرغمت على الإرتحال بعيدا إلى مدارات التيه والضياع، إلى فضاءات باهتة في ملامحها، منفرة وطاردة، بل مفتقرة إلى الحميميات وأبسط عناصر الحياة، يخيم على أرجائها البرود والأسى وانحسار الحس التشاركي، إنها لعمري مجلى العدمية والنهاية الأزلية، حيث لا سلوى ولا تنفيس، وهنا بالذات يستشعر المنفي بتلاشي الأشياء وفقدان قيمتها الإعتبارية، وانعدام سبل البقاء، فتنهار في أعماقه صورة العالم، وتصبح رديفة للفناء والإمحاء.

يهندس مُحَّد مفلاح في روايته شبح الكليدوني ملامح شقية ومضطربة لبطل ينتمي إلى عائلة ذات تاريخ عريق حافل بالإنجازات والمكتسبات؛ إنه امُحَّد شعبان المنفي الذي يحيا حياة كالحة جوفاء في ظل واقع باهت، يجلله القنوط والأسى وانكسار عنفوان الأحلام والأمنيات الجميلة في وطن ما عاد قادرا على لملمة جراحاته، إنه يشعر بملل عتيد وخواء عاطفي رهيب في هذا الزمن الأرعن، ولعل

الذي زاد من حدة تأزم وضعه الاجتماعي هي وظيفته كإداري، تلك التي أورثته إحساسات مقيتة وسلبته لذة الحياة، لأجل ذلك فهو لا يفكر في شيء سوى مغادرة مدينته التي حلت بها اللعنة، والهروب بعيدا من الفراغ القاتل الذي راح ينهش أيامه بنهم كبير، وهكذا «فقد سكنته الرغبة في الهجرة والذوبان في الكون الفسيح...إنه يحب أن يكتشف كل العوالم الساحرة التي كان يحلم بها في طفولته وبخاصة جزيرة كاليدونيا الجديدة التي نفي إليها الشيخ المُقَّد المنفي ومجاهدو ثورة سيدي الأزرق بلحاج المندلعة سنة 1864م...» (مفلاح، 2015).

إذن، يؤشر اسم البطل وبشكل رأسي على حقيقة انتسابه إلى جده الشيخ المُقَّد الكليدوني، والذي زج به قسرا إلى سراديب المنفى الموحشة في العهد الكولونيالي(كاليدونيا الجديدة)، ويبدو أنه قد استشعر غرابة هذا اللقب وثقله في سن مبكرة جدا، لأجل ذلك راودته رغائب ملحة ممزوجة بحيرة كبيرة لمعرفة سر هذا اللقب المجيد الذي صار يحمله هو وعائلته العريقة في العلم والتصوف والفروسية، يقول الراوي: «منذ الأيام الأولى لدخوله المدرسة الإبتدائية، شعر بثقل لقبه وغرابته، لقب مثير لاهتمام كل من يسمعه لأول مرة...» (مفلاح، 2015).

لقد ورث البطل المُقَّد بن شعبان عن جده –وإلى جانب لقب "المنفي" المجيد– تاريخا مليئا بالهموم والعذابات، لذلك بدا مسكونا بشغف متعاظم يهيمن على روحه وكيانه للتعرف على هويته وماضيه المغيب، بل تمنى أن يقف عند كل شبر مر به في غيابات المنفى التي طرد إليها، حينما كان مجاهدا في صفوف المقاومة الشعبية ضد فرنسا الإستعمارية الغاشمة، «فوالده هو من ألقى في نفسه بذرة المنفى، وجدته عمقت الجرح بحكايات عن هموم الماضي المعطوب» (مفلاح، 2015).

ويمضي البطل في توسيع دائرة أمنياته، ليبدو هذه المرة مشدودا إلى حبائل الفرار من الحياة التي تحولت إلى مسرح عبثي لا معنى له، فأيامه صارت شاحبة، متنكرة له، مدججة بالروتينية والغربة القاتلة، ولأجل ذلك فهو يرغب في المغادرة الفورية، ويأمل أن يجد بديلا مكانيا يستعيض به عن وطنه الذي استنفذ فيه كل طاقاته دون أن يستحصل شيئا، وذهب به الأمر أن بحث طويلا في مواقع التواصل الإجتماعي عله يعثر على أحد تفوح منه رائحة جزيرة كاليدونيا؛ عبق الماضي بل شذى الأجداد المبعدين والمنبوذيين، وينجح في العثور عبر صفحات الشابكة على فتاة تقطن بمنطقة بوراي تدعى: Alima kanak، «عرفته على نفسها فاسمها "أليمة طايب"، والدتها من الكلدوش المنحدرين من الفرنسيين المنفيين بعد ثورة كومونة باريس، ووالدها جزائري نفي أثناء ثورة المقراني سنة 1871. تعلم منها أشياء كثيرة عن الكاليدونين من أصول جزائرية وعددهم لا يقل عن عشرين ألف نسمة، ازداد رغبة في معرفة تاريخ والد جده...» (مفلاح، 2015).

نستشف من خلال هذا المقطع السردي أن البطل لا يرغب في شيء، سوى معرفة التاريخ المطمور وإضاءة الماضي الغامض والمهمش الذي تقلص الإهتمام به، وانحسر حضوره، ليقتصر على ذاكرة والده فقط (بعد وفاة جدته لالة نبية الفليتية التي كان يلجأ إليها كلما ازداد يأسه من حياته المملة، فتحدثه عن كلوم الماضي ومعاناة جده في المنافي)، وكأن الروائي يأفل وراء قناع خطابي تنكري، أو لنقل خلف الظلال الوارفة لشخصيته البطلة، ليدين السلطة السياسية في البلاد، التي ما عادت تعنيها هذه الفئة المهملة المقصاة، والتي دفعت

حياتها ثمنا للذود عن شرفها وحماها، يقول الحاج عبد القوي مخاطبا المُحَّد شعبان الذي عجز عن الإحاطة باللغز الكامن وراء لقب المنفي: «وزارة التعليم لن تدرسكم عنها، نسيت جراح المنفيين في العهد الكولونيالي...» (مفلاح، 2015).

ويواصل الروائي ليشهر في وجه المؤرخين سيف الإدانة الواضحة لعجزهم عن بعث التاريخ والحفاظ على الذاكرة الوطنية، فتقصيرهم وإهمالهم العلني غيب أخبار المنفيين ومعاناتهم وشعورهم القاسي باللاانتماء ولا جدوى الحياة، يقول المُحَّد شعبان متسائلا، وقد قفزت الحيرة إلى نفسه: «...لماذا غيب المؤرخون مأساة هؤلاء الثوار المنفيين إلى كورسيكا وكاليدونيا الجديدة؟ لا نعرف حتى أسماءهم، أمر عجيب. ولماذا سكت الناس عن هؤلاء المنفيين الذين لم تذكرهم الكتب المدرسية، ولم تطلق أسماؤهم على الشوارع والمؤسسات؟ عجبا، لم يلتفت حتى إلى جهاد الشهيد سيدي الأزرق بلحاج» (مفلاح، 2015).

هناك شيء من التعالق البليغ والرمزي بين الحقيقي والمجازي في الصياغة السردية عند مُحَّد مفلاح، إذ أنه يقدم رؤيته إزاء المنفى بطريقة إيحائية جميلة قبل أن يسمي الأشياء بمسمياتها، فالعمارة الخامسة لبنايات حي ديار الورد المشقوقة المهترئة، ليست سوى الوجه الآخر أو الصورة المرآوية المنعكسة لتاريخ الجزائر المنهك المعطوب المطموس المنسي، والذي يحتاج إلى ترميم وإعادة بعث لروح الحياة فيه، لكن ما من نية أمام تقاعس الجهات المعنية غير العابئة بالأمر، وفي هذه الحالة فإن يد الهدم ستطال لا محالة هذه العمارة، وستهوي بها إلى قعر العدم والنسيان، مثلها مثل التاريخ والذاكرة الجمعية اللذين طال بهما الإنتظار على مصاطب التأجيل، علهما يظفران بحظوة أو فرصة اهتمام، وعلى هذا الأساس، فإن العمارة الخامسة تنتصب كمعادل موضوعي للتاريخ الجزائري الذي يكاد يفقد هويته ووهجه، ويستكين إلى التلاشي والزوال.

والحقيقة أن المنفى من منظور مفلاح، لا يأتي إلا كرديف للموت، إنه يتحول إلى تراجيديا إنسانية عميقة وحزينة جدا، لأنه يحيل على القطيعة المطلقة مكانيا ووجدانيا، بل نوع رهيب من البتر والتشويه وما ينجر عنهما من خسران وضياع على ضحاياه الذين لا حول ولا قوة لهم، وبالتالي فإنه بارد وحاد كالموت تماما، يقول المُحَّد شعبان في هذا السياق: «الموت أرحم من ألم قلب مريض في زمن المنفى» (مفلاح، 2015)، فالبطل يرفض الاندماج في غياهب المنفى رفضا قاطعا، لأنها تمور بالوحشة والمعاناة والدمار واليأس والعزلة الروحانية، ومزيج من أشياء عدة لا توحي بأي وجه من وجوه الإستقرار، بل لا تحمل أمارات الحياة أساسا، إنه يمقت زمن المنفى لأنه زمن التيه والإمحاء أمام جبروت قوى أعتى لا تعرف للشفقة طريقا، إنه زمن يتم في اللاجدوى، حتى لتبدو الذوات المنفية التي كان يسربلها، ويضيق الخناقات عليها وكأنها لم تكن.

يتحول المنفى عند مفلاح إلى ترنيمة سردية موجعة، أو لنقل إلى نمط كتابة إشاري موغل في التدليل ووضع اليد على الجرح الدفين، ومهازل تغييب التاريخ الجزائري المسكوت عنه، باعتباره ذاكرة وبصمة هوية زاخرة لشعب بأكمله، دفع إزاء كل ذلك كلفة باهظة وتضحيات جسام، فالأمر لا يقبل التفاوض والتريث إذا ما كان متعلقا بالوطن؛ رمز الكينونة والوجود والجذور والانتماء والانتساب، يقول الراوي:

«...لو كان بكيت ابطال رفدوهم في بابور** بي ضاق المور

راهم شقوا البحور دارقين وخبرهم ينعاد

راهم مسجونين في جزيرة وسط بحور** بي ضاق المور

عليهم الباب والقفل معمد تعماد

عيطة ناس مسلسلين يتمشوا بالكور** ضاق المور

جيش الروم معذبهم من بكري حقاد» (مفلاح، 2015).

تعتري البطل المُحَّد شعبان رغبة ملحة في العودة إلى الماضي، فأمنيته الأولى التي تقفز إلى وجدانه هي البحث عن قبر جده (الشيخ المُحَّد الكليدوني) –وضياع القبر كناية على ضياع التاريخ والهوية الجزائرية– وهي أمنية والدة وكذا الحاج عبد القوي، الذي لم يكف يوما عن ترديدها وتذكير الحفيد بها، إذ نسمعه يقول: «...ابحث يا المُحَّد أريد أن أرى قبره قبل وفاتي، وأحب أن تتعرف الحكومة على تاريخ سيدي المُحَّد المنفي وتضحياته، كان مقاوما كبيرا، عاش منفيا في كاليدونيا الجديدة، وانضم إلى ثورة الكناك وعاش بينهم، ثم فر من الجزيرة في سفينة إنجليزية تحمل الزيت إلى أستراليا، وقضى ثلاث سنوات في الحجاز. ثم رجع إلى الوطن مع موكب حجاج المغرب متنكرا في زي درويش، اليوم نسيته الحكومة والمؤرخون وكل الناس في هذا الزمن الغدار» (مفلاح، 2015).

يحيل القبر المجهول على الذات المنفية (الشيخ المُحَّد الكليدوني)، التي ارتشفت مرارة المعاناة حد الإفراط، حتى صارت دما يسري في شرايينها وعروقها، فسخرية الأقدار رمت بها في دوامات مدوخة منفرة يتعذر فيها الشعور بالكينونة، أو الانخراط في تجربة ممارسة الانتماء، إنها دوامات تحطم كل آفاق المأمول أمام المنفي، لأنها تنفتح على فضاءات أقل ما يقال عنها أنها مخربة ومفتقرة إلى العمق الحميمي والإنساني، وسالبة لروح الأمل وبريق الحياة ونكهتها.

إذن، تضعنا هذه الرواية أمام تجربة الأنا أو الذات المنفية، المجتثة من جذورها، الفاقدة لطعم الأرض والأوطان، المثقلة بالهواجس والكوابيس المفزعة، إنها ذوات متصدعة لا تكف عن إعلان انكفائها وانسحابها نحو مناطق مجهولة داخل محيطها الشخصي، حيث الوحدة المضاعفة والإحساس الحاد بالعزلة والاغتراب، وإذا شئنا الاقتراب أكثر من ملامح هذه الذات وجدنا تزفيطان تودوروف قد عمد إلى تحبيرها، وذلك من خلال قوله: «تشبه هذه الشخصية (–المنفي) في بعض جوانبها المهاجر، وفي بعضها الآخر المغرب. يقيم المنفي، مثل الأول، في بلد ليس بلده، لكنه مثل الثاني، يتجنب التمثل، غير أنه وخلافا للمغرب، لا يبحث عن تجديد تجربته وزيادة حدة الغربة، وخلافا للخبير، لا يهتم خصوصا بالشعب الذي يعيش بين أفراده» (إبراهيم، 2010).

ويذهب عبد الله إبراهيم إلى أن «المنفي هو من اقتلع من المكان الذي ولد فيه، لسبب ما، وأخفق في مد جسور الإندماج مع المكان الذي أصبح فيه. فحياته متوترة ومصيره ملتبس، وهو يتآكل باستمرار، ولا يلبث أن ينطفئ: فالمنفي ينطوي على ذات ممزقة لا سبيل إلى إعادة تشكيلها في كينونة منسجمة مع نفسها أو مع العالم» (إبراهيم، 2010)؛ ومعنى ذلك أن الذات المنفية هي تلك الأنا المنفصلة المنبت، المنقطعة الوشائج مع دفء العائلة والأحبة ونكهة التربة أو الأرض الأولى، ولا غرابة في ذلك، فالمنفى في نهاية المطاف هو اغتراب مكاني قسري موحش، يأتيك دون دعوة، يداخل كينونتك، ثم ما يفتأ أن يأكلك من الداخل شيئا فشيئا إلى يوم تتكوثر فيه

قوته، فيفاجئك بشهقة قلبية، أشبه بسيمفونية تراجيدية موغلة في الإيلام، ولا تكاد تمضي أيامه وساعاته حتى يجهز عليك بشيء من الانتشاء كبير...

وإذا كان الشيخ المُحَمَّد الكليدوني قد عانى من ويلات الإغتراب وتبعاتها في ربوع المنفى، وهذا أمر طبيعي ومسلم به، فإن حفيده المُحَمَّد شعبان هو الآخر عايش مثل هذه الإحساسات المقلقة والمدمرة لكن بين أحضان الوطن، الذي أنهكه وقذف به إلى فوهة بركان قاتل وقابل للإنفجار في أي حين وآن، وهذا ما يجعل من الوطن يؤول إلى مكان للجذب (بوصفه مسقطا للرأس) تارة، وللطرد والنبذ (باعتباره مكانا للعدمية والفراغ والحياة القاسية) تارة ثانية، وهكذا، فإن هذا الحفيد ينتصب كأنموذج للذات المتأزمة التائهة الباحثة عن هويتها الضائعة، إنها تروم الخلاص من واقعها المتعفن، وتتطلع إلى غد أفضل خارج فضاءات انبثاقة الميلاد الأولى؛ الأرض الأم التي تقف عاجزة على مد يد العون لأبنائها من أجل انتشالهم من فم التيه والضياع... وهي رحلة تطلع تتغي في عمقها البحث عن ملامح وخصوصيات هويتها المغيبة المقذوف بها إلى سراديب التهميش وسرادق الموت الباردة.

وعلى هذا الأساس، فإن الرواية تطرح سؤال الماضي في نوع من الاشتباك الأثير مع سؤال الهوية، وهي أسئلة تستمد مشروعيتها من الراهن الجزائري الذي يمعن في تجاهل مقومات هذه الهوية وطمس دمغتها، ومحو معالمها الكبرى، ومادام أن الذات الجزائرية لم تستوعب بعد ذاكرتها وهويتها، فإن الروائي تعمد مثل هذا الطرح، ليزج بها في قضايا تتصل بهويتها أساسا.

لقد عمدت رواية شبح الكليدوني إلى طرح قضية الهوية عبر مسارين متداخلين ومتعاضدين يكاد أحدهما أن يتماهى في الآخر، الأول خاص بالجد، والثاني متعلق بالحفيد؛ بطل المنجز الروائي (أمُحَمَّد شعبان)، الذي كان منهمكا في البحث عن دفء الحياة في الأمس، وفي حكمة الأجداد وقلقهم الوجودي والإنساني، فالجد امتداد أزلي في الزمان والمكان، رمز الأصالة والعراقة، بل بصمة التراث القابعة في حنايا الذاكرة، متواريا بين شعابها، ولأجل ذلك يستمسك البطل بجده، باحثا عن طيب رائحته في المتاه المجهول، متعطشا إلى الوقوف على عرفات قبره، عله يقتنص إشارة ضوئية تضيئ له دهماء عمره، وتوجهه رأسا إلى ضالته ووجهته المحددة.

تعيش الذات المنفية أزمة هوية، فتعذر الانتماء إلى أي عالم من العوالم التي تكون فيها، يضاعف من حدة انحسار الشعور بهوية متكاملة وأحادية القطب، لأن «تغير البيئة يؤدي إلى تغيرات في إطار المرجع الذي تتشكل من خلاله الهوية الشخصية وتصان» (المجيد، 2006)؛ ومعنى ذلك أن المنفى –كمكان مفتقر إلى الحميميات، طارد للذوات– يعمل على تخريب الهوية الواحدة والمطلقة، ويقود الذات المنفية إلى الشعور بوهم الانتماء إلى أكثر من هوية، وفي الوقت نفسه قد تفقد الانتساب إلى أي منها أساسا، وهكذا، فإن هوية الذات المنفية هوية قلقة محتارة غير مستقرة تعاني التشظي والإنشطار، إذ أنها تتأرجح بين الهنا والهناك، ممتطية صهوة الإرتحال والطواف والتجوال، ضاربة في عوالم شتى.

وإلى جانب كل ذلك، تتكشف لنا عبر تضاريس الرواية أيضا ملامح هوية تبدو هي الأخرى ضائعة ومنفصمة ومثلومة، إنها تلك التي تتصل بالمُحَمَّد شعبان، كذات تعيش حياة متذبذبة متوترة يهيمن عليها زخم من الضغوطات والمصير المجهول، معلقة ومشتتة بين حبائل الماضي والحاضر، تحيا الآن، ولكن نفسها مشرئبة إلى دفء الماضي، مرتدة إلى أيامه الجميلة وذكرياته الزاهية، باحثة عن قبر الجد

المجهول، الذي هو مفتاح فتح باب الهوية الأصيل، وهكذا فإن الحفيد الذي يقع هو الآخر في أتون الإنشطار والتشظي بين جحيم الوطن، حيث الأب والأم، وبين كاليدونيا الجديدة رائحة الأجداد ورياحين الذكرى الطيبة، مطالب بلملمة أشلاء الذاكرة المغتالة، وملء فجوات التاريخ الموءود في حفرة الطمس، والذي تم إسقاط بعض فتراته عمدا، لتجميع ملامح هويته الجمعية، والتعرف عليها في كليتها وعراقة خصوصيتها.

5. التفعيل السردي للذاكرة المنسية

إن رواية شبح الكليدوني هي رواية الذاكرة بامتياز، إن لم تكن أصلها ولبها الجوهري، فمنها تسترفد نبوءاتها السردية، وتؤثث مساحاتها النصية، إنها رواية انكتبت لتضع اليد على الجراحات والأوجاع، ولتسمي الأماكن بمسمياتها، أماكن منتشية بساديتها، يسكنها التيه والضياع، وتمتد عبر ضلوعها الآهات والأنين، وهذا ما دفع بأحد النقاد إلى التأكيد على أن «الرواية تشتغل كمصهر لشظايا منسية أو مهملة وتحتاج الذاكرة للتطهر من ثقلها» (ماجدولين، 2019).

وإذا كانت الكتابة السردية لا تنبثق سوى من رحم الماضي كذاكرة وكترسبات راسخة في الزمان، فإن هذه الرواية لا تخفي اتكاءها الواضح على خطاب الذاكرة الذي يسعى الناص إلى إخراجه من وضعه المغمور إلى دائرة النور، ليصبح صوته مسموعا في كل العصور، فانطلاقا من العنوان الذي لا يخلو من فنتازية حكائية، نلحظ ذلك الإغتراف الكثيف من معينها الخصيب، ولا غرابة في ذلك، لأننا نحن كبشر وكما يقول ميلان كونديرا: «...نعيش نصف حياة فقط، أما النصف الآخر فذاكرة» (رجب، 2019).

إذن، تنخرط رواية شبح الكليدوني في الدفاع عن الذاكرة الجمعية المشتركة بوصفها تعبيرا عن الهوية، وعن خصوصية اندراج جماعة معينة في سيرورة التاريخ، من منطلق أن الرواية كانت أساسا أحد الخطابات الإبداعية المقاومة للمسخ والنسيان والموت، إنها خطاب كفيل بترميم ما انهار وتلاشى، ولعله لهذا الغرض انكتبت هذه الرواية، لتؤكد مرة أخرى أنه لا وطن بلا ذاكرة، إنها ذكراة جيل وشعب بأكمله، وهكذا فإن تجربة الشيخ مُحَّد الكليدوني القاسية في المنافي تغدو ذاكرة تروي لنا محنته ومحنة حشد من المنفيين كابدوا الأهوال، وذاقوا مرارة الأحوال معه هنالك في كاليدونيا الجديدة، المكان المعادي والقاضي على الأحلام والأمنيات الجميلة...

والحقيقة أن هذه الذوات المنفية لا تشكل سوى رموزا أثيرة للذاكرة المنسية، إنها أشباح كليدونية تعمد الروائي بعثها من رماد الموات وعدمية المنفى، كأطياف حنينية تمر في الأرجاء، تعيش بيننا، تراقب حاضرنا وجحيم وطننا، تريد أن تبرق لنا بماضيها، بل ترغب في شيء من الإلحاح كبير أن ننصفها نحن كمتلقين، بعد أن اجتاحها موج المؤرخين الغادر فطمسها، وألقى عليها غلالة من التعتيم والتهميش المهين، وهكذا، فإن هذه الرواية تغدو نوعا من الممارسة الخطابية الشبحية التي تراقص أطياف ذواتها المقموعة والمضطهدة على إيقاع ذاكرة منسية هي في أمس الحاجة إلى تعجيل تفعيلها، والأخذ بيدها نحو منطقة الوعي بها والحفاظ على كنوزها النفيسة.

وعلى الرغم من التقسيم الساري المفعول للذاكرة إلى فردية وأخرى جمعية، إلا أن وشائج الربط بينهما تظل قائمة وموجودة، ذلك أن «عملية التذكر الفردية لا يمكن أن تنشأ أو أن تتم إلا ضمن إطار اجتماعي معين» (سوكاح، 2006)، كما أن الذاكرة الجماعية لا

يمكن أن تكتسب ملامح الكينونة إلا في ظل وجود ذوات ممفردة، فـ «الذاكرة الفردية هي ذاكرة الشاهد هي الرحم الذي ولد منه التاريخ ثم سجلت شهادة الشاهد ودخلت الأرشيف المخيف بحجمه وتنوعه، وجاء المؤرخ كي يعيد إلى المجموعة تصورا أو بالأحرى تمثيلا حقيقيا للماضي يضعه أمام الأمة كي تكون عندها ذاكرة جماعية جاءتها من هذا الذي لم يعد قائما ولا نستطيع أن تستعيده وتتحقق من صدق هذه الإستعادة» (بول، 2009).

وفي ظل عدم تمثيل المؤرخين الجزائريين للحقيقة في كنهها الماضوي، فقد جاءت رواية شبح الكليدوني كانقلاب سردي على جذوة النسيان، إنها تشريع حكائي لأبواب الذاكرة الجمعية على مصراعيها، بل توجيه لأصبع الإدانة إلى تقصير المؤرخين في نثر وهج بذور حكاية المنافي، المنفتحة مداراتها على زخم من الشقاء النفسي والحياتي في نفوس وأحداق الأجيال الصاعدة، وإعادة تبويب تمثلها في الفعل التأريخي، وسيرورة تفجير هذا الفعل إبداعا، عبر معول النبش والتنقيب لنفض الغبار على الآسن الموءود تحت أنقاض الإهمال، وهي دعوة صريحة إلى مد جسور التاريخ بين الماضي والحاضر، بين الأحفاد والأسلاف، ذلك أن «عوالم الأسلاف والأخلاف تمد في اتجاهي الماضي والمستقبل، الذاكرة والترقب، سماتها المميزة في العيش معا..» (بول، 2009)،التي نستبينها في ظواهر مختلفة.

ويذهب صاحب كتاب الذاكرة، التاريخ، النسيان بول ريكور Paul Ricour إلى أن أفعال الذاكرة تجد مساندة ثمينة في الأجداد، مشددا في الوقت نفسه على ضرورة الانتباه إلى دور الوسيط الذي تلعبه ذاكرة الأقارب Les Proches (بول، 2009)، وهو الأمر الذي نقف عنده بشكل جلي في رواية شبح الكليدوني، فذاكرة البطل مُحَمَّد شعبان لم تستيقظ من غفوتها، إلا بعد البذرة التي نثرها والده وجدته في كيانه، وتكثيف شحنة الحكي الماضوي من قبل هذين القريبين فالوعي الحميم للزمن الماضي والذاكرة لم تتم إلا بهما ومعهما، وهكذا، فقد سمحت ذاكرة الأقارب للبطل برسم صورة شبه كاملة عن الأحداث التي وقعت في زمن مبكر من حياته.

وتبقى الذاكرة –كما يشير أمبرتو إيكو– لصيقة بالذات والهوية، إذ يذهب إلى أنه عندما نقول: أنا، فإننا نعني ذاكرتنا، على أن الذاكرة من منظوره الشخصي هي الروح، وإذا فقد شخص ما ذاكرته، فإنه يصبح كالنبتة ولا يعود يمتلك روحا بعد ذلك.

6. خاتمة

ومنتهى الحديث أن: شبح الكليدوني تدبيجة سردية تعمد إلى حياكة التاريخي والتخييلي في نسيج نصي متجانس، إنها احتفاء بالتاريخ المغمور المطمور، وإدانة واضحة للسلطة أولا، ولمعشر المؤرخين ثانيا لإهمالهم هذا الجانب المهم، وتقصيرهم الواضح في نقل الحقيقة الماضوية بحذافيرها، إنها تتصل اتصالا وثيقا بالهوية الجزائرية، وتتخذ من التراث المادي والمعنوي (خاصة الموروث الشعبي البدوي) مادة ثرية ومطواعة لبناء وحداتها السردية، لكن في إطار تجربة المنفى، لأجل ذلك نجدها تعمد إلى طرح سؤال الهوية المزدوجة أو المتشظية بين عالمين، لتغدو بذلك حالة من اللاانتماء لأي منهما، بل حالة برزخية بينية تكرس التيه والضياع بين الهنا والهناك.

ولن نجانب الصواب، إذا ما قلنا أن هذه الرواية هي خطاب حفريات فاضحة هاجسها الكشف والمكاشفة، وتعرية المسكوت عنه، بل رفع اللثام عن كل ذاكرة منسية أسقطها كتاب التاريخ المتواطئين مع السلطة، المجارين لمخططات الطمس والوأد التي تمارسها هذه الأخيرة

لإطالة حبل الود مع فرنسا واستحصال رضاها، وهكذا فإن مفلاح الذي يحمل وعيا عميقا وحميما للماضي، يروم من خلال إعادة كتابته لتاريخ المنفى إلى إحياء ذاكرة شعب تم التلاعب بها، والعبث بمحتوى تلافيفها حد الزج بها في قعر جب النسيان العتيد...

قائمة المراجع

1- أحمد رجب. (07 12, 2019). أي علاقة بين الذاكرة والخيال في السرديات العربية المعاصرة. تاريخ الاسترداد 05 07, 2020، من *alarab.co.uk: https://* |

2- الشحات محمد عبد المجيد. (2006). سرديات المنفى، الرواية العربية بعد عام 1967. عمان، الأردن: أزمنة للنشر والتوزيع.

3- جبار سعيد. (2012). من السردية إلى التخييلية بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي. الجزائر العاصمة: منشورات الإختلاف، ط1.

4- ريكو بول. (2009). لذاكرة التاريخ النسيان. دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1 : لبنان.

5- زهير سوكاح. (05 12, 2006). مفهوم الذاكرة الجمعية عند موريس هالكبواكس، الحوار المتمدن، تاريخ الاسترداد 23 05, 2020، من *https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=82628*

6- سعيد إدوارد. (1997). صور المثقف، محاضرات ريث سنة 1993. بيروت: دار النهار.

7- شرف الدين ماجدولين. (12 09, 2019). كتابة الذاكرة. تاريخ الاسترداد 13 08, 2020، من *aljazeera.net/news https://www.aljazeera.net/news/cultureandart*

8- عبد الله إبراهيم. (01 يناير , 2010). الرواية العراقية الجديدة، المنفى، الهوية، اليوتوبيا. مجلة علامات، ع33 ، الصفحات 78-59.

9- محمد مفلاح. (01 11, 2015). الرواية التاريخية تدون ما أهمله المؤرخون. تاريخ الاسترداد 08 07, 2020، من *aljazeera.net: https://www.aljazeera.net/news/cultureandart* |

10- واسيني الأعرج. (30 يونيو, 2020). اللغة شريكة المنافي. تاريخ الاسترداد 28 أوت, 2020، من *https://www.alquds.co.uk*